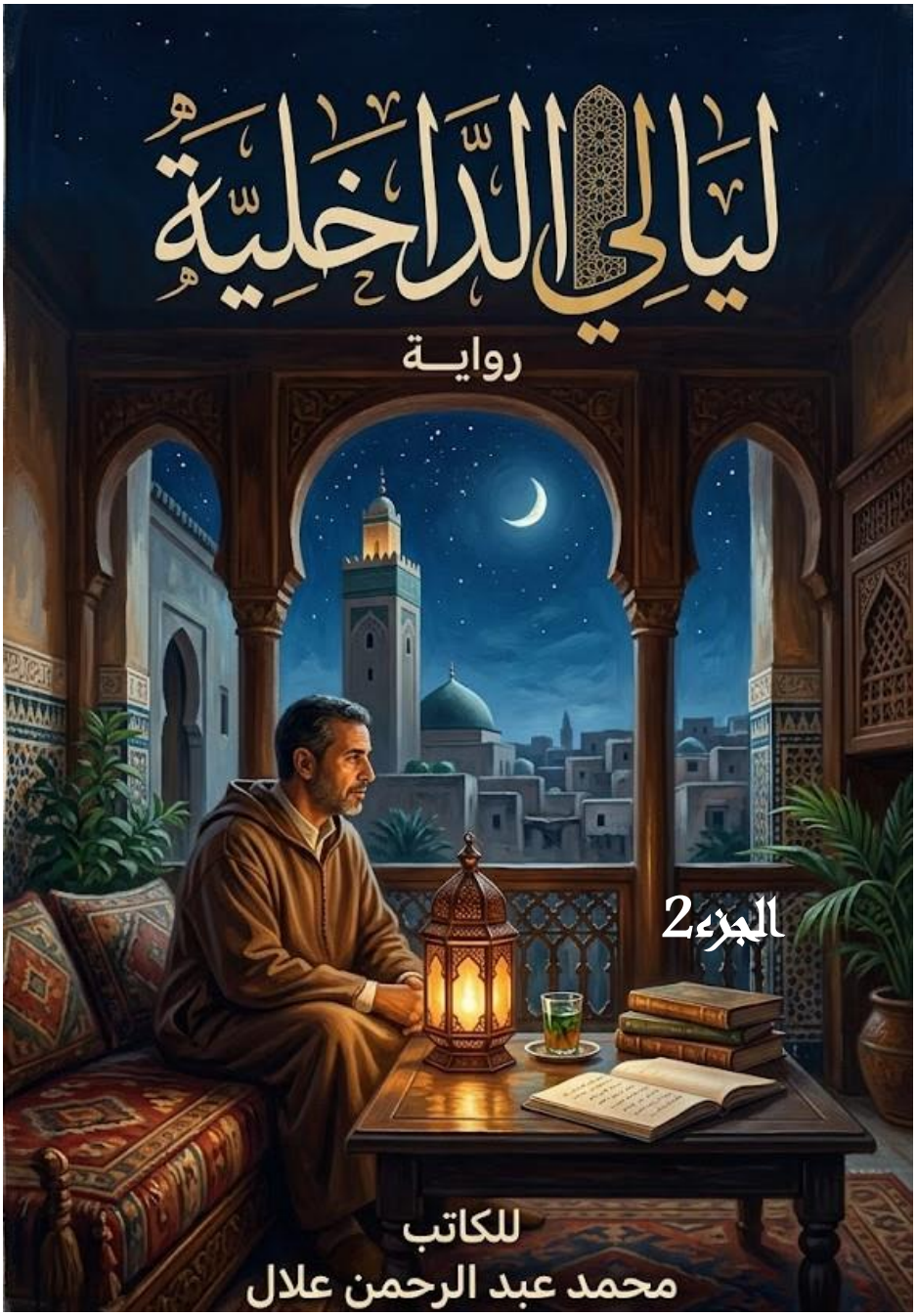

تروي احداث اللقاء الأول مع الأساتذة بالثانوية

الجزء2

في ذلك الصباح الواقع في السادس عشر من شهر شتمبر و العام الف وتسعمائة وأربعة وسبعين ،وبعد ان قام بواجبات النظافة ،توجه تيمح نحو قاعة الاكل التي جمعته بالأمس بهؤلاء المساكين الذين سخروا منه كثيرا .وضعت أكواب القهوة على الطاولات في شكل شبه دائري بيضاء شفافة .بجانبها قطع خبز يتيمة لا دسم يجملها.تناول الفطور وسط ذلك الهرج والمرج من الأصوات التي ملأت القاعة بلا انقطاع .انطلق والأقران الى الإعدادية .اعدادية سيدي عبدالجبار القديمة .على الطريق الى هناك ،مروا بالسوق الأسبوعي للمدينة .رآه تيمح بناية تتسع طولا وعرضا يخال انه ملعب قديم لكرة القدم .يحيط به سور مرتفع جعله قلعة تقف صامدة امام عدو متربص .بابه واسعة لم يكن بها ما تنغلق عليه .وقعت عيناه على بقايا خضر تفترش الثرى منتشرة تتقاذف رياه الخريف الخفيفة أوراق بعضها الذابلة . ساروا دون حديث أحيانا تنير اشعة الشمس الدافئة دربهم الى العلم ؛واحيانا كان بعضهم يعبر عن امتعاضه من وجبة الفطور الفقيرة """لم تكفني. لم لتطفئ نار جوع بطني "يثول احدهم وذراعيه لا تتوقفان عن الحركة .اقتربوا شيئا فشيئا -وقد تجاوزوا المكان -من الثانوية .ها هم يعبرون ارضا واسعة خلاء لا بناء عليها .نبتت عليها بعض من اعشاب منفردة تقاوم الصيف الهالك في صبر . تتراءت الثانوية امامهم عتيقة تقف وقورة في شموخ . اثار انتباهه وتلك الصورة تقف امامه منظر الدراجات الهوائية التي

صففت ورتبت كثيرة بشكل بديع قبالة جدار تلك البناية .كان كل شيء جديد عليه يومها .يومها احس بشعور غريب . احس ان الحياة تنبعث فيه من جديد .انه دخل عالما غير عالم مدينته الاصلية .غير عالم قريته .هنا بدأت ملامح التقتقد والتطور في الفكر تنفتح أمام عينيه.دخل الثانوية ثانوية سيدي عبدالجبار .رأها صرحا كبيرا .تنتظم الفصول الدراسية فيه على شكل طابقين . تتوسطه ساحة رحبة يتجمع بها الطلاب في صفوف متراصة قبل مرورهم الى الفصول الدراسية .على يسار مدخلها الرئيسي تواجدت إدارة المؤسسة وقد وضعت لافتة على متن سبورة صغيرة كتب عليها """إدارة"""وعلى اليمين من المدخل كانت قاعة خصصها المشرفون على الثانوية مكانا للمطالعة خلال ساعات الفراغ بين الحصص.كانت غرفة قديمة .ما يغيب أستاذ عن حصته الا وصاحب المعيدون بالثانوية تلاميذه الى تلك القاعة يلزمونهم بالمطالعة او مراجعة الدروس ..لا مكان لهم في الشارع ووجود تلك الأماكن .على الممشى الى داخل المؤسسة ،كان ممر يؤدي الى ميدان الرياضة.كان فضاء ممتدا مساحةٌ .يطل على بعض بساتين البلدة حيث النخيل يصافح الأبصار من بعيد.على بعد خطوات من هناك ،استقر مكتب الحارس العام.بجانبه ودرج يؤدي الى الطابق الأول أين وزعت الأقسام بديعة الترتيب.وقف الجميع مثنى مثنى وسط الساحة. ارسل تيمح عينيه منذ الوهلة الأولى الى هناك .نظر الى الامام بين تلك الصفوف المبنية الممتلئة طلابا ،نظر منجذبا متمعنا ؛إذا برجل يقف مزاجها تلك الجموع المختلطة كأنه قائد اما جيش عرمرم .ظهر له من تلك المسافة

نحيف الجسم قليلا ،قد بدأ قليل من شيب ينبت على جوانب راسه.يقف صارما لا يتحرك الا بضع حركات خفيفة برجليه المنتصبتين كالاوتاد على خلاف.سمعه يردد كثيرا كلمة """الٌ.....ألٌ""" حتى صارت لقبا له بعد ذلك اليوم لسنين . كانت قبل ان يفهمها تيمح كلمة بالفرنسية مفادها """« allons ...allons " تكفيه هذه الحروف المكررة ليضبط جمهورا من الذين لا تنزل عيونهم عن وجهه مادام هناك واقفا يتحدث .كانوا امامه جنودا مدربين تشرئب اعناقهم صوب تعليماته انتباها.سار تيمح على خطى ما فعله زملاءه هناك .تسمر في الصف دون حراك لا تغادر عيناه وجهه.بعدها، وباشارة من اصبعه،أمر معيد الثانوية ذاك التلاميذ بالانصراف الى مقرات دراستهم فانصروا .لم يشهد تيمح اثناء انصرافهم خروجا عن الصف ولو لبرهة ،ولو من تلميذ واحد .سير في استقامة لافتة لكل ذي عين مبصرة.لم يسمع ولا كلمة .ولا همسة والصف يتقدم نحو الدرس .ظل السيد واقفا هناك يتابع من بعيد ولم ينبس ببنت شفة زيادة. بلغت الصفوف مقصدها .غابت تلك الجسوم الغضة عن الأنظار بعد ان امرهم بولوج الأقسام والتزام الصمت في انتظار المعلم .انتبه تيمح يومها لهذا السلوك الغريب .سلوك الصرامة من المعيد وسلوك الاخلاق والامتثال من الطلاب . فتح تيمح عينيه صبيحتها على اول أستاذ دخل فصله بعد ذلك المشهد المهيب في الساحة """سي الانصاري""" . كان معلما للعربية .جلس تيمح على مقعد وسط القسم الدراسي .التحق كل تلميذ بمقعده .وقفوا دون حراك تحية له كما كانوا يفعلون في المدرسة قبل عام حتى أذن لهم بالقعود فقعوا .لزم مكتبه لبضع ثوان ،هاهو يقوم

ليجوب الفصل ذهابا وإيابا بين الاروقة .طفق يسأل كل طالب عن اسمه والمدينة التي ينحدر منها .عن عمل ابيه .كانيضع أصابعه على فمه باستمرار .بدا طويل القامة ممتلئ الجسم .ذو شعر ناعم أسود قد حلقه كثيرا تختفي عيناه خلف نظارتين بيضاء كاشفة .ما كان ينزعهما إلا ليمسح عليهما بين حين وآخر بمنديل أنيق.قد زينه المعطف الطويل الاسود بازراره الكبيرة فازداد وقارا وهيبة .لم ينتبه لسرواله ولا لحذائه يومها لكنه فطن لعنفوان الشباب على ملامحة وقد توسط عُمرا. وقع ذلك في يوم الخميس من شهر شتمبر وهم جلوس في حضرة سي الانصاري ، صار تيمح يتفحص اجساد التلاميذ في فصله الجديد فاذا هي ضخمة .ازدادت ضخامة بالقامات الطويلة .بنيات قوية عريضة كاتسبها البنون والبنات هناك .لم يكونوا في نظره تلاميذا بالنظر الى بنيته الضئيلة و قصر قامته امام قاماتهم .لم ينتبه وهو في تلك الحال من الشرود والتامل الا وهو يجد رجلا اخر يقف امام السبورة السوداء .رفع عينيه اليها فاذا هي كلمة مزينة بخط جميل باللغة الفرنسية ""ماتيماتيك *mathématique*""لم يفهم ماذا كان يعني ذلك؛فمنذ عام فقط ،كان معلم الفرنسية في مدرسته ابن تاشفين ببوعرفة يكتب على الجانب الايسر من السبورة وبالفرنسية كلمة "كالكيل *calcule*"" ظلت الكلمة ترعب التلاميذ خوفا و اقترانها بكلمة هندسة *géométrie*.وبكلمة مسألة *problème*كانت الحصة خلالها مزيجا من الحساب والهندسة والمسائل المعقدة .قرأ الرجل عنوان المادة ثم استرسل بالفرنسية يشرح عملية الانتقال من ""كالكيل*calcule* "" في الشهادة الابتدائية الى ""ماتيماتيك*athématique*"" في

الملاحظة .كان رجلا نحيف الجسم ،متوسط الطول ،حسن الوجه .ذو شعر خشن كثيف .يتحدث بسرعة وبلسان تخرج منه الكلمات رقيقة عذبة .وقف وسط الفصل لم يغادر لوقت من الوقت يحدثهم .اخبرهم في خضم حديثه باللوازم المدرسية لمادته .بقي تيمح ينظر اليه بامعان وهو يدخل عالمه الجديد عليه . عالم جديد بكل المعاني .كل شيء طبعه الجِدّ .لا مكان للهزل او الكسل .طارت الشمس والخريف في بدايته الى الاعالي فاترة تأخذ مكانا متقدما من السماء وهي تنحو فيه برفق يسارا.كانت حارة تنذر بخريف ممطر .بعد لحظة وقد آنسه مشهد ذلك الأستاذ وكلماته ، سمع جرسا يرن على بعد أمتار.لقد حان وقت اللقاء مع سي """"الُ"من جديد .إنها فترة الاستراحة .قام تيمح يجمع اوراقا واقلاما كان قد بعثرها على طاولته .ثم، بحركة رشيقة خفيفة غادر الفصل يقفز مع المغادرين .أضحى ذلك الصباح مشهودا .لقد كان كذلك حقا .عند عودته من حصة الصباح الى الداخلية ،وضع اوراقه في حقيبته الصغيرة التي ابتاعها من احد دكاكين مدينة بوعرفة قبل الدخول المدرسي بايام .حيث كان عليه ساعتها ان يهيء نفسه للحياة الجديدة بفجيج بعيدا عن عالم اسرته .غسل يديه ثم وقف امام قاعة المطعم ينتظر مع المنتظرين ساعة الصفر لبدء وجبة الغذاء .تحلق الطلاب نزلاء الدار مجددا حول الطاولات .امتلأت القاعة صخبا .لا حديث الا عن وقت وضع الصحون على الموائد .لا حديث سوى على طبيعة ونوع الاكل الذي كان سيقدم .لم يكن تيمح ينتظر طعاما دسما ولا غذاء متنوع العناصر .كان منذ سفره يعلم انه في دنيا غير تلك التي الفها في منزل ابيه .دخل المشرف على الاطعام القاعة

ايذانا بقرب وصول الاطباق .كان "حمو حمامة" رحمه الله رجلا نحيف الجسم حازما يضع نظارات بيضاء تزورها يده بين حين وحين مخافة السقوط.يحمل في يده على الدوام قطعة من خشب او لدائن """"كاواتشو""لا يتوقف عن تحريكها في كل اتجاه .كان الطلاب يخافون دخلته تلك ويهابون عصاه .بصرخة واحدة من فم قد غادره الكثير من سكانه البيض ،صمت الجميع واستقبلوا الصحو ن، وهاهم كلهم منكبون على تناول العدس تتناوبه بين ايديهم الملاعق وقطع الخبز البيضاء""الكومير"""مع الملاعق المعدنية الثقيلة.لا حديث يُسمع خلا صوت احتكاكها بحافات الصحون المستديرة. ظهر العدس وسط الصحن اسود يسبح في ماء عكرت صفوه توابل متعفنة..بين فينة وفينة ينطلق صوت من هنا او من هناك يقول في شجون """زيدني شوي ،زيدني شوي ،واخا غي البيون ""ثم يستمر ذلك الحفل تنشط ايقاعاته أدوات الأكل على الموائد .عالم غريب من الحركة والسكون ،والفرح والخوف والاضطراب . إنه العيش مع الجماعة .الاكل مع الجماعة .النوم مع الجماعة.عالم تُنشَدُ فيه مع الجماعة ،سمفونية الجوع دفوفها اطباق من العدس المسقي بمغلي التوابل القديمة. كان سي "الشاهدي" شابا أشقر الشعر ناعم الملمس؛ ينسدل كستارة على مسرح شكسبير على رقبته يكاد يغطي كتفيه .أحمر الوجه نحيف. تميل عيناه الى الخضرة قليلا .طويل القامة. يظهر سمك سيقانه النحيلة من خلال سرواله الأزرق جليا بينا .عريض الفخذين قليلا .ألقى اليه ببصره وهو يجلس على كرسي خلف مكتبه. يتحدث الفرنسية يتقنها ولا يمزجها بلغة .كان تيمح وزملائه يفهمون قليلا منها

زمن الإشارات بيده او علامات من ملامح وجهه.بدأ منذ تلك الساعة يحدثهم عن رجل سماه """لاستغولوك"""رجل كما ظهر في صورة على السبورة ذو لحية بيضاء يضع على رأسه قبعة عجيبة .لم يعهد تيمح ولا من كان حاضرا معه مثل تلك الصور وهم في المدرسة قبل عام من اليوم .حدثهم عن كتاب المطالعة المستمرة """الثعلب"""وامرهم بقراءته وتلخيص فقراته الزاما.حديثه بطيء لطيف .حتى عندما انتهت حصته وهم بالرحيل ،نظر امامه وعانق الخروج دون وداع ، دون سلام .لم يلتفت اليهم وهو على الطريق الى الباب .كان تيمح يتبع خطواته .يدهشه عنفوانه،معجبا بلباسه، بهيأته، بكل شيء فيه .كان يمثل في عينيه قيم المدنية .هو ابن مدينة وجدة .وكانت حاضرة آنئذ من حواضر المغرب الكبيرة .ابن مدينة لا يعرف عنها تيمح سوى اسمها او الاحداث التي درسها عنها في التاريخ آنفا.دخل عليهم وهم في خضم حديث عن ذلك الأستاذ الشاب ،رجل يلبس معطفا اسود اللون .ينتعل حذاء اسود لامعا يعلوه بنطلون على مقاسه أضفى عليه فتنة .وقف الجميع تحية له كما دأبوا على ذلك مع من سبقوه.جلس ،ثم صار يتحدث في تاريخ الأمم السابقة ولم يكن تيمح يفهم شيئا مما يقول .في اخر فصل له بالابتدائي ،تعلم كثيرا عن تاريخ المغرب .وهاهو اليوم ينتقل الى تاريخ الحضارات القديمة ،حضارات بابل واثينا والرافدين ومصر القديمة .لم يكن يفقه في حديثه شيئا بحق؛لكنه كان يستمع اليه منصتا منجذبا لشرحه الاول.وقف سي """محمد عمارة""" رجلا حسن الوجه، بعينيه قليل من حول . ذو شعر اسود ناعم ممشوط على الطراز القديم .متوسط القامة

.واسع الثقافة كما تجلى ذلك من حديثه .متمكن من مادته وقد مرسته السنون على اتقانها.أمست حصة التاريخ يومها طويلة غنية .ما رآ تيمح في حديث السي عمارة فتور ولا على ملامح وجهه هزل .لم يكن رجل دعابة ولا صاحب نكتة؛ بل الجد كل الجد ،والصرامة كل الصرامة في الدرس.لم يكتب حرفا على السبورة ،وما رسم خطا عليها بالطبشورة ،بل جعل من استرساله في الحديث عن تاريخ الامم السابقة سبيلا الى رسم تلك الخطوط المتموجة التي تداعب الاذن والقلب ،فيعقل كل كلمة ويطبع كل صورة على الذاكرة.سَيَّرَ تغيُرُ الاحداث ريشة رقيقة يرسم بها الوانا زاهية في مخيلات من كانوا يستمعون اليه.حين قام بتلك الجولة حول الفصل وزمن الحصة يميل نحو الانتهاء ،لم يلمس أحدا. ما كلم احدا .أمسى يتكلم لغة عربية فصيحة وهو ذو اللسان الامازيغي .يشرح فقط،يقدم المعلومات تلو الاخرى كأنه مذياع يسرد اخبارا .خرج الجميع حين دق الجرس .انطلق اطفال البلدة الى دورهم هناك وسط البساتين الغناء على متن دراجات هوائية اختلفت انواعها واحجامها وأشكالا.غلبهم على حديثهم اللسان المحلي فتفننوا في تبادله و تداوله . يسرعون الخطى وامطار الخريف تدق كل باب .حمل تيمح نفسه يمشي على القدمين ؛ يرافقه بعض الاصدقاء الى دار الطالب.لم تكن امه في انتظاره كما هو الحال عند اطفال البلدة المنطلقين في حبور .لم يكن إخوته في استقباله صغارا يتعانقون في سرور.لم تكن مائدة المطبخ قد وضعت على أرضية المذبخ بشهي الطعام. ثقلت خطى سيره يكره ان يدخل الى مأواه الجديد .يعلم والرفاقَ ان الأسِرَّة داخل حجرة نومهم تنتظر قدومهم باردة جافة . سيضطرون من

جديد لاخراج كتبهم للمراجعة قبل أوان وجبة العشاء الهزيلة .سمع الآذان على مسافات مختلفة يدغدغ الأسماع.حان وقت العشاء .نظر تيمح الى الاسرة في تلك القاعة الطويلة العريضة ،فاذا هي فارغة بعد ان كانت عمارا قبل لحظة .اسرع الجميع جريا وتدافعا الى قاعة الاكل .بدأت للتو عملية فرز الاصحاب من غير المرغوب في مرافقتهم على المائدة .تحلقوا حولها راضين بما قسم الله في تلك الليلة .أخذ تيمح مكانه كما بقية الجالسين .أَلْفَى المائدة ملأى صحونا بها "شربة حساء"" ترافقها قطعة خبز وملعقة ثقيل وزنها .نظر الى هنا والى هناك ،فاذا الرؤوس مطأطأة قد شغلها الحساء .نشطت حركة الملاعق في تلك الساعة من الليل توصل الحساء الىأفواه لم تذق اللقمة منذ الزوال.خرج بعض النزلاء باكرا وقد انهوا حساءهم دون ابطاء .ها هي ساحة دار الطالب عامرة تعج بحركة ذؤوبة .ينتقل فيها النزلاء بين الاروقة والنخلات متجولين يتسامرون . هم وجدوا الوجبة دسمة لا ريب وبرد الليل آخذ في النزول .بات يمشي يلمس بكفه اشجار النخيل .يلمس السواري السميكة تزين المكان .يتفحص عالما مختلفا يلجه مرغما.كانت الاضواء خافتة، يتلاعب بها جريد النخلات ؛يظهرها تارة ويخفيها طورا .اتخذ بعض الطلاب في ذلك الليل من عتبات النوافذ مقعدا لهم. وقف آخرون أمام اباب أحدى الغرف .كانت تلك قاعة ألمطالعة .قاعة تمتد يمينا ويسارا .يتفرع في وسطها مكتب سي""""عزوز""""كأنه محراب في مسجد صغير تعلوها ""قبة"" تحمل قطعة معدنية على شكل هلال قد تركت تجويفا عميقا اسفلها .اصبحت الحركة تخف شيئا فشيئا .كان الطلاب يُخْلون الى قاعة النوم وقد

غلبهم النعاس فرقدوا .في اليوم التالي ،استيقظ على انغام موسيقى سي العربي بوعزة الروحية . دخل بعد اداء فروض النظافة الى قاعة الاكل حيث كأس القهوة ورغيف الكومير ينتظران النزلاء .همس اليه احد الطلاب يقول"هذا القهوة باردة وقيلة حطوها في الفجر"".ضحك من كلامه حتى غشيته دوخة .كانت باردة حقا .لم يحرك تيمح لسانه بكلمة.أومأ برأسه موافقا .احتسيا الفنجانين في صمت .ثم ،بعد وقت قصير ،انطلقا معا صوب الثانوية .على الطريق اليها ،مرا بارضية السوق الاسبوعي كعادتهما.يرافقهما حديث مطول بينهما .قال مرافقه وقد علا صوته قليلا هذه المرة : "" انا جوعان ، وهذه القطعة الصغيرة من الخبز لا يمكنها ان تسد فراغات بطني حتى وقت الخروج زوالا ،الا يمكنهم ان يعطونا قطعة خبز إضافية ؟ماذا سيخسرون ؟ ؟"" كان تيمح يفهم جدا ما يعانيه صاحبه .فاحساسهما بهزالة ما يقدم لهم كان متبادلا .لكن ،هو يعلم أيضا ان حالة الشبع قد راحت ،ذهبت يوم فارقوا امهاتهم واسرتهم .هناك ،كان يفطر على قطعة خبز كبيرة وجبن او زبدة او سمن أحيانا . كانت كؤوس الشاي بالنعنع تسع بطنه ارتواء . يفطر على حساء لذيذ في بعض الاصباح هناك .اليوم هم في مكان اخر .في مكان غريب ومع اشخاص غرباء .عندما دخل باب الثانوية ،ثانوية سيدي عبدالجبار ،كان الحديث بينهما قد تحول .فقد سار كل واحد منهما يسأل صديقه عن مدى اعداده للدرس ،عن مدى استعداده للمشاركة في الدرس ،عن مدى ارتياحه او قلقه من حصص ذلك الصباح ومن يقدمها من الأساتذة.حديث عن المدير والمعيد الصارمين .كانا يسارعان الخطى والمعيد واقف يراقب لا تفلت منه

صغيرة ولا كبيرة من المشهد امامه.ثم بدأ الدرس .وقف امامه والصحاب في المختبر رجل انيق .طويل القامة عريض الجسم يرتدي وزرة بيضاء مثله في ذلك كطبيب في عيادته.قد اصطف شعره في تسريحة بديعة .حسن وجهه يشع من الضياء لدرجة الجمال .عليه حياء ووقار المعلمين .اختار ان يحدثهم باللسان الأجنبي.يسترسل فيه كشرا .كان سي بندحو مصطفى استاذ العلوم ذا حزم منذ الحصة الاولى في تعاماه مع الطلاب.كان على الطلابتضطرهم خفة لسانه الى الجد في تعلم اللغة الفرنسية والى سرعة البداهة من اجل الفهم ان اوادوا فهما